الفصل

3

الذكر والأنثى في غينيا الجديدة

انطلقت ميد مع فورتيون إلى غينيا الجديدة مرة أخرى في عام 1931، فيما ستكون رحلتها الثالثة إلى البحار الجنوبية. أراد القائمون على المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي إعطاءها إجازة مطولة تمتد حتى عامين من الزمن، فقد طلبوا منها أن تجمع لهم أدوات وأسلحة وألبسة وألعاب، وأدوات موسيقية وأشياء من صنع الإنسان البدائي؛ لوضعها في صالة عرض جديدة خاصة بشعوب الهادئ. لم يكن من اهتمامات ميد في السابق أبداً إحضار التذكارات إلى أوطانها سواء لها أو أشياء من صنع الإنسان من رحلاتها للمتاحف. فعندما ذهبت إلى ساموا، لم تحضر معها سوى مروحة وفنجان شرب واحد وقماشة التابا المصنوعة من لحاء الشجر والتي أهدتها إلى رث بندكت، إلا أنها هذه المرة ترغب في

التقط ريو فورتيون هذه الصورة لميد وهي بين الأرابيش في شمال غينيا الجديدة في عام 1932. أعطى علماء الإنسان الإذن بالبقاء في القرية مقابل الملح وأعواد الثقاب.

جمع أشياء للمتحف إذا كان هذا يعني تمكنها من العمل على مشروع خاص بها. أرادت ميد هذه المرة دراسة الاختلافات في الجنس وليست التجارب عند المراهقين مثلما فعلت في ساموا، بل دراسة الطريقة التي تحكم وتنظم قوانين الزواج في ثقافات مختلفة. وذلك بمقارنة الأساليب المختلفة للسلوك المنتظر من الرجل والمرأة في الثقافات المختلفة، والتي درجنا الآن على تسميتها بالتوقعات. كما كانت عادة ميد؛ فلا بد من وجود مشكلة مهمة تكمن وراء اختيار بحثها. فخلال فترة العشرينيات في الولايات المتحدة، والتي سميت مجازاً بالعشرينيات المزدهرة، فقد تحدت نساء عديدات هذه التوقعات المبنية على الزواج، وذلك برفضهن للنماذج المقولبة لسلوك «السيدة الأنيقة» والإصرار على المرأة في أن تقصر شعرها، وترتدي الفساتين، وتدخن السجائر، وأن تعمل في المهن والوظائف. ولكن تحطم سوق البورصة الشهير عام 1929 وفترة الإحباط الشديد التي تبعته أديا إلى أن تصبح الأعراف في البلاد أكثر تحفظاً وقوانين الزواج أكثر صرامة. فذهبت الأعمال الشاغرة المتوفرة لتكون من حصة الرجل الذي كان ينتظر منه أن يكون مستقلاً وعدوانياً وقاسياً. أما المرأة فكان عليها تنشئة الأطفال والاهتمام بالشؤون المنزلية بشكل رئيسي، وربما بالأشياء «الألطف» في الحياة مثل الفنون. السؤال الذي أرادت ميد الإجابة عليه هو ما إذا كانت هذه التفرقة الحادة بين ما ينبغي أن يفعله كل من الرجل

والمرأة تعود إلى الطبيعة أم إلى التربية، بمعنى أنه هل هذه هي نتيجة اختلافاتٍ فطريةٍ بيولوجية بين الرجل والمرأة، أم أنها ببساطة نتيجة للتوقعات الثقافية والممارسات المتبعة في تنشئة الأطفال؟ لا يساور أحد الشك أن هناك بعض الاختلافات الطبيعية البيولوجية بين الرجل والمرأة. فالرجل بشكل عام أكبر حجماً، وأقوى جسداً من المرأة التي تحمل وتلد الأطفال بينما لا يفعل الرجل ذلك. ولكن هل تحدد هذه الاختلافات البيولوجية خيارات كلا الجنسين؟ إذا كان صحيحاً فلا بد أن تتبع كل المجتمعات الترتيبات نفسها تقريباً. كانت ميد متأكدة أن الحال لم يكن كذلك، لذا أرادت أن ترى كيف تصيغ المجتمعات الأخرى أدوار الذكر والأنثى؟

كانت المرحلتان الأوليتان لميد إلى جنوب الهادئ إلى جزر حيث تستطيع القوارب نقلها إلى وجهتها، إلا أنها هذه المرة ذهبت مع فورتيون عن طريق اليابسة إلى غينيا الجديدة عبر مناطق غير مضيافة، وطرق وعرة؛ حيث كان من الصعب أن تصل إلى هناك وحدها. كانت ميد تكره التمارين الرياضية بكل أشكالها. إلا أنها كانت مضّطرة إليها لأنها لا تزال تعاني من كاحلها الضعيف نتيجة الإصابة التي تعرضت لها في مانوس. احتاجت ميد لزوجها ليس فقط من أجل الصحبة والتحفيز الفكري؛ ولكن ليساعدها أيضاً في الانتقال من مكان إلى آخر؛ حيث كانت ترغب في الذهاب إلى مناطق معزولة عن الثقافة الغربية قدر الإمكان. وكان في غينيا

الجديدة الكثير من هذه القرى دون أسماء، وكانت كل قرية تتحدث لغتها الخاصة وهي منفصلة عن الأخرى بجبال شاهقة.

اتجها في البداية إلى شعب سمي أبيلام وقد عاش في منطقة قريبة من الساحل الشمالي، وكان معروفاً بحياته الشعائرية الغنية. كان فورتيون قد استأجر حمالين لينقلوهما، إلا أنهم عندما وصلوا الجبال داخل غينيا الجديدة، رفضوا المتابعة. وأسقطوا ميد التي كانوا يحملونها على عربة مقطورة مربوطة إلى عواميد، وتركوها محزومة مثل المواشي. تركت معدات الزوجين

كان سكان الأرابيش الجبليون يستخدمون الفؤوس لاستصلاح تربة الجبال الرقيقة. كانت ثقافتهم المادية بسيطة على عكس لغتهم الكثيرة التعقيد.

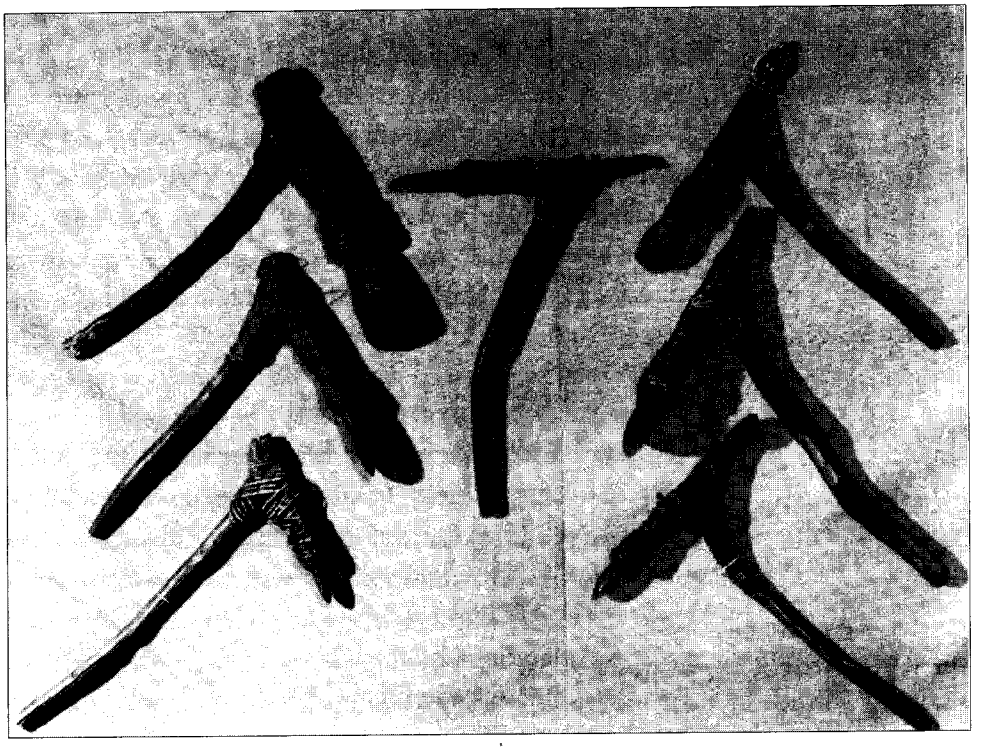

في قرية جبلية. كان ميد وفورتيون محاصرين فليس هناك طريقة للتقدم أماماً، أو للرجوع. لذلك قررا الاستفادة من هذا الوضع ودراسة الناس الذين وجدا نفسيهما بينهم، وقد سموهم الأرابيش؛ هي كلمة تعني في اللغة المحلية «صديق» أو «قريب جيد».

كان الأرابيش الجبليون شعباً فقيراً، وكانت ثقافتهم بسيطة جداً. وقد عاشوا على شريط جبلي ضيق بين سطحين منحدرين بعرض 66 قدماً صعوداً حتى قمة الجبل بما يعادل صفاً من مباني متلاصقة في مدينة ما، وعلى كل جانب منحدرات شديدة تنخفض لمئات الأقدام.

كان يتوجب حمل كل قطعة طعام أو عود حطب عبر هذه الطرق المنحدرة الضيقة، وعادة كانت النساء تحملها في شباك تتدلى على جبهتهن. كان شغفهم الأساسي هو استصلاح الأراضي لإنتاج الطعام الذي كان صعب جداً في تربة الجبال الضعيفة الرقيقة. وكانت تنمية الأشياء ورعايتها سواء كانت محاصيل أو مواشي أو أطفال مهمة كل بالغ في الأرابيش. كانت شخصيات وأدوار الرجال والنساء متشابهة، وكان الناس هادئين، وكانت تربية الأطفال من مهمات الجنسين. إلا أن الشيء الأكثر تعقيداً في هذه الثقافة كانت اللغة التي تحتوي أحد عشر جنساً أو صنفاً قواعدياً (اللغة الإنجليزية فيها ثلاث مذكر ومؤنث ومحايد) وعندهم 22 ضمير غائب، وعدة طرق للجمع.

بدا وكأن الأرابيش قد استخدموا كل قدراتهم الخلاقة في صياغة لغتهم. قضى ميد وفورتيون عدة أسابيع يناضلون لتعلم لغة الأرابيش مع معلمهم الرئيسي، وهو الفتى الذي يعمل في المنزل.

بمرور الأشهر، تزايد شعور ميد بالعزلة وسط الأرابيش، وكان زوجها يذهب في رحلات طويلة وكثيرة إلى القرى القريبة وإلى الساحل لكن كاحلها الضعيف جعل من المستحيل عليها المشي في طرق الجبال الوعرة وأحست بأنها عالقة في القرية فقد كانت تبقى في القرية حتى في الأيام التي تكون فيها القرية مهجورة عندما يذهب كل الناس إلى مزارع القرية لثلاثة شهور. ولم تتلق هي أو فورتيون أية رسالة، وعندما كانوا يستمعون إلى بعض أخبار من الراديو فإنها كانت في معظم الأحيان عن أحداث لا يعرفون عنها شيئاً. كسرت كذلك ساعة ميد فكانت تجد صعوبة في الالتزام بأي نوع من النظام. بدا ذلك رمزاً لبعدها عن الحضارة الغربية. وفي نهاية المطاف، نادراً ما تمكنت من معرفة الأيام. فحتى التقويم بدا شيئاًلا معنى له.

عدا عن إحساسها بالعزلة، وفقدانها الإحساس بالزمان والمكان، كانت هناك مشاكل أخرى. كان فورتيون يغضب بسرعة، فعندما كان ينفذ صبره من أحد الصبية العاملين في المنزل، كان يهدده باستعمال العقاب البدني ضده؛ مما أحزن الأرابيش الذين كانوا يكرهون العدوان أو

التقط ريو فورتيون هذه الصورة لمراسم الموندوغومر الشعائرية لتقليد شخص ما مكانة مهمة وقد صورها فورتيون على فيلم في أول الثلاثينيات من القرن الماضي. كتبت ميد تقول عنهم: «كانوا من آكلي لحوم البشر حتى حوالي أربع سنوات خلت». «كانت الصبية بعمر الثانية عشر يأكلون اللحم البشري وكانوا يُظهرون سعادة ومزاحاً لئيماً في إظهار ووصف نظام غذائهم المنصرم».

العنف بكل أنواعه، كما أنه أحزن ميد كذلك وهي التي لم تكن تتخيل أن يقوم أي شخص بضرب طفل.

عانت ميد القلقة والضجرة في قرية الأرابيش في جبال غينيا الجديدة من حالة إحباط شديد أصابتها، ولم تتكرر في حياتها. بدا لها كأن الأرابيش لا يفعلون شيئاً، وبدت صورة حياتها أمام عينيها سطحية وتافهة. لقد أحس فورتيون بالخطر من حالتها النفسية المتدهورة المحبطة في حين كانت هي تنظر إليه في ازدراء متزايد.

بعد سبعة أشهر ونصف في قرية الأرابيش، قررا أن ينتقلا إلى شعبٍ مختلف وأن يُنهيا تخييمهم عند

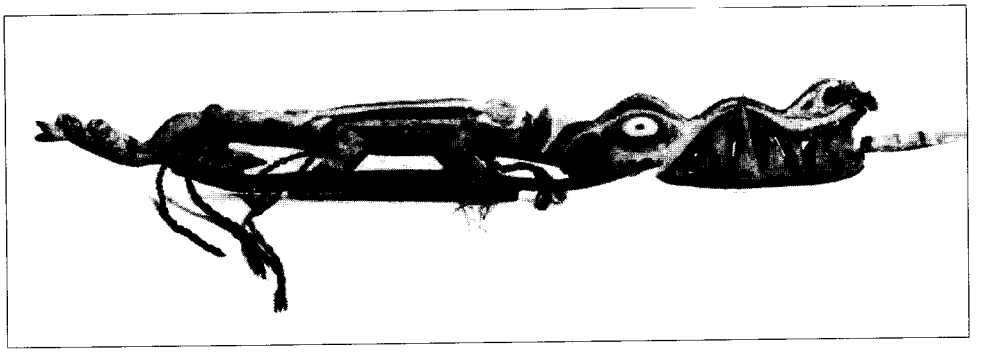

واحدة من الأشياء المتعلقة بالشعائر عند الموندوغومر مثل هذا التمساح المحفور من الخشب والذي كان يستخدم في تقليد الذكور مناصب رفيعة. وكانت هذه الأشياء محرّمة على النسوة كما كانت تخبأ بعيداً عنهن.

الأرابيش. فقد علما أن عالم إنسان إنكليزي يدعى غريغوري بيتسن يعمل عند نهر السيبيك في غينيا الجديدة مع أناس رائعين يدعون الإياتمول، وتمنوا لو أنهم وصلوا هناك قبله. وبدلاً من الذهاب إلى هناك، ذهبا إلى أعالي نهر يوات، وهو رافد من روافد نهر السيبيك، وأقاما عند المندوغومر الذين كانوا يختلفون تماماً عن الأرابيش، ولكنهم كانوا محبطين لميد مثل الأرابيش من حيث اختلافات الأدوار عند الجنسين. كانت ثقافتهم في طور انتقالي تحت ضغط الأستراليين المتحكمين الوحيدين في المنطقة. فتحت ضغطهم تخلوا عن أكل لحوم البشر، وهذا أحال حياتهم الشعائرية إلى العدم، وبدت ثقافاتهم بأكملها مجمدة. كان لدى زعيمي هذا المجتمع عشر وتسع زوجات لكل منهما حيث كانت كثرة الزوجات تفيدهم لأنهن هن اللواتي كنَّ يعملن على زراعة التبغ.

وكان الرجال والنساء عدوانيين وقساة، وعندهم غريزة قوية وغير مبالين بأطفالهم لدرجة أنهم كانوا يلفون الأطفال غير المرغوب بهم بكل بساطة بلحاء الشجر ويرمونهم في النهر أحياء. عندما كانت ميد متزوجة من

لوثر كريسمان في السابق أخبرها الأطباء أنها على الأرجح لن تتمكن من الإنجاب. في ذلك الوقت تقبلت الأمر وجدولت مستقبلها وفقا له. إلا أنها الآن مروعة من موقف الموندوغومر تجاه الأطفال. الأمر الذي جعلها تشعر للمرة الأولى في حياتها أنها تريد طفلاً لها لتهتم به وتدلله. ولكن فورتيون لم يكن في اعتقادها أباً جيداً وازدادت التوترات في حياتها الزوجية. أخذ فورتيون يدرس ما رآه أكثر الصفات المهمة للثقافة بما في ذلك نظام القرابة تاركاً لميد دراسة الأطفال والنساء. علمت ميد أثناء حديثها مع أهل القرية عن وجود سمة في نظام القرابة لم يكن فورتيون قد انتبه لها. فأخبرته بذلك لأنها كانت تعتقد أنه من الضروري دائماً أن نظهر الأخطاء بحيث يمكن إصلاحها. إلا أن فورتيون لم يظهر امتناناً لذلك.

بالإضافة إلى جميع الصعوبات التي تعرضا لها، كان البعوض المشكلة الأسوأ التي واجهاها. فقد أجبرتهما هذه الحشرات على البقاء ليوم بطوله داخل الناموسية، وكانت عبارة عن صندوق شفاف بعرض عشرة أقدام وطول عشرة أقدام وارتفاع تسعة أقدام. وكانت هذه المساحة الصغيرة لا تكفي إلا لكرسي وطاولة. بالإضافة إلى ذلك فقد مرضت ميد بالملاريا، فوجدت القليل من التعاطف من فورتيون الذي كان يتجاهل مرضه وتعبه الجسدي، ويتوقع من الآخرين أن يفعلوا الشيء نفسه. في سنوات زواجهم الأولى، كان يمرضها برفقٍ عندما كانت تمرض لكنه الآن

لا يفعل ذلك لأنه خشي أن يشجعها ذلك على القنوط والجزع.

في أواخر ديسمبر عام 1932 وبعد سنة متعبة من البحث، حزموا مخيمهم وأخذوا زورقاً بخارياً حكومياً لينقلهم مسافة 250 ميلاً أعلى نهر السيبيك إلى أمبنتي، المحطة الحكومية الرئيسية في المنطقة حيث سيقضيان إجازة أعياد الميلاد. توقفوا في طريقهم في قرية الإياتمول في كانكانامون حيث كان يعمل غريغوري بيتسن الذي دعاهما إلى بيته المؤقت، وكان بيتاً رائعاً. وأخذهما في جولة فيه، ثم سحب كرسياً لميد قائلاً: «تبدين متعبة» فبدت هذه الكلمات لميد كأنها أول إطراء تسمعه منذ عدة أشهر.

انخرط الثلاثة في نقاشات طويلة عن أعمالهم بالإثارة ذاتها، التي تضمنها الحديث الفكري بين ميد وفورتيون على متن الزورق عندما كانت عائدة إلى وطنها من ساموا، ولكن النقاشات هذه المرة كانت بين ثلاثة أشخاص، كان غريغوري بيتسن ابن عالم أحياء إنكليزي مشهور، وكان غريغوري نفسه قد تلقى تدريباً كعالم أحياء، وكان له فهم معقد للمنهج العلمي، ولكيفية إدراك المسائل والأدلة، ولكنه كان ملماً إلماماً قليلاً بعلم الإنسان. فلم يكن يعرف كيف يشرع في مراقبة السلوك الإنساني الفردي.

وكان يتردد في دراسة النشاطات الجماعية مثل

الجنازات؛ لخوفه من أن يكون متطفلاً عليهم؛ لذلك فقد أحس أنه يتخبط وسط شعب الإياتمول. أما ميد وفورتيون فقد كانا يعرفان كيف يجمعان المعلومات التي تفيدهما في ميدان عملهما، وكانا يقرران ما يريدان دراسته ثم يسعيان وراءه. وحتى عندما كان الأمر يتطلب أخذ المعلومات المطلوبة بالقوة، كانا يفعلان ذلك، كان فورتيون قد طور أسلوباً سماه «تحليل الحدث» وهو عبارة عن مراقبة منظمة ومدعومة بتسجيل التفاصيل الدقيقة للسلوك. إلا أنهما كانا منبهرين بتدريب بيتسن الفلسفي. فبالنسبة إليها، فقد كانا يعرفان كيف يجمعان المعلومات، ولكنهما لم يكونا واثقين دائماً ماذا يفعلان بها؟ وكيف يضعانها في السياق الأوسع؟ وكيف يجعلانها ذات معنى؟. أما بيتسن فكان خبيراً في الإجابة على هذه الأسئلة.

استمر الثلاثة في متابعة أحاديثهم مستمتعين وسط احتفالات الإجازة المستمرة في المركز الحكومي في أمبونتي. وكان سبعة عشر رجلاً وامرأتان فيهم مغتربون وموظفون حكوميون، وعمال جدد، وآخرون متلهفون للتعويض عن أشهر العزلة باللهو الصاخب. واتباعاً لعادة مركز الحكومة المستعمرة، فقد كان يسبق العشاء كل ليلة ساعة للراحة. لذلك اعتادت ميد على أن تأخذ شرائح من الخبز والزبدة من الطباخ لتُسكت جوعها حتى تقديم العشاء في نهاية الأمر. بعد عدة أيام من هذه الاحتفالات، أخذ بيتسن كلاً من ميد وفورتيون في رحلة إلى أعالي النهر في قاربه الكبير لمساعدتهما في العثور على شعب آخر

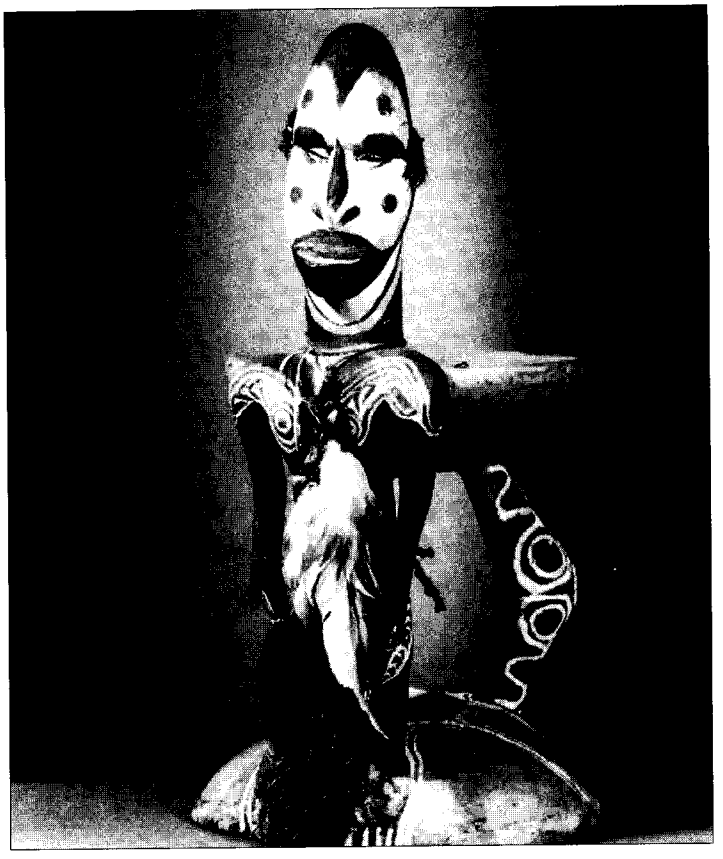

ساعد غريغوري بيتسن ميد في الاحتفاظ بكرسي النقاش التشامبولي هذا للمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي. كان على بيتسن شراء هذا الكرسي من قبيلة عند نهر السبيك والتي أغارت على قبيلة التشامبولي الأقل قوة.

ليدرسانه. زارا شعب الواشكك ولكن سرعان ما أدركا أنهما قد جاءا في التوقيت الخاطئ؛ حيث كان الناس يتوقعون هجوماً عليهم من جيرانهم العدوانيين، وكانوا متوترين مترقبين وخائفين على سلامتهم وسلامة زوّارهم.

جهز فورتيون مسدسه وتناوب هو وبيتسن وميد عل الاستيقاظ للحراسة ليلاً بينما كان الآخرون نياماً. ولهذه الظروف رأت ميد أن هذا المكان ليس صالحاً لكي يكون ميدان بحثهم المقبل.

ثم زارا بعد ذلك مخيم بيتسن وسط الإياتمول لمدة أسبوع، ثم أخذهما بيتسن إلى مجموعة أخرى غير معروفة تدعى تشامبولي (سميت لاحقاً بالشامبري) وهم شعب كان يعيش عند بحيرة إيمبوم. كانت البحيرة جميلة، وكانت أزهار السوسن المائية تحاذي الشاطئ بينما كانت ترقد طيور مالك الحزين الزرقاء والعقبان النسّارية البيضاء على المياه الضحلة. كان من المعتقد أن ثقافة تشامبولي تشبه ثقافة الإياتمول مما يمكّن كلاً من ميد وفورتيون من مقارنة معلوماتهما مع معلومات بيتسن. وبشكل عام، أثبت هذا المكان أنه موقع بحث مثالي، ولذلك أقام فيه فورتيون وميد، وأقام بيتسن في مخيم ثانٍ أقامه على ضفة البحيرة ليس بعيداً عن ميد وفورتيون.

وجدت ميد أخيراً ضالتها عند شعب التشامبولي. فقد وجدت الثقافة التي شكلت أدوار الذكر والأنثى في طرق مختلفة، وما وجدته فيها بدا النقيض الكامل لأدوار الجنسين في مجتمعها. كانت النسوة في تشامبولي نشيطات وعطوفات ومتعاونات بسهولة فيما بينهن، بينما كن يدرن شؤون أعمالهن الحياتية. كانت الفتيات الصغيرات يشبهن أمهاتهن في الذكاء والكفاءة. وكان هذا هو المجتمع الوحيد الذي رأت فيه ميد الفتيات هن الأكثر تلهفاً وفضولية ونضجاً فكرياً بدلاً من الفتية، كما ذكرت لاحقاً. وكان الفتية قد بدأوا فعلاً في تقليد آبائهم، المعتادين على قضاء وقتهم في بيوت شعائرية كبيرة إلى الجنوب من شاطئ البحيرة، ليصنعوا الزخارف الخشبية

وهم ينمون وينشرون الشائعات، ثم تتملكهم نوبات غضب وتحول في أمزجتهم ليقوموا بمبارزات تظهر تنافسهم الشديد.

اعتاد فورتيون وميد وبيتسن على أن يتقابلوا كثيراً لمناقشة عملهم، وعندما يكونوا في مخيماتهم يرسلون رسائل طويلة ذهاباً وإياباً ليقارنوا أعمالهم ويتحدثوا عن العلاقة بين الزواج والمزاج والثقافة، كما تحدثوا عن أنفسهم.

أحست ميد أنها وبيتسن يمثلان نسخاً مختلفة للنمط المزاجي نفسه. فقد كانا عطوفين وحنونين في سلوكهما، مثلهم في ذلك مثل شعب الأرابيش، بينما كان فورتيون متكبراً وأنانياً ومحباً لنفسه، ومنساقاً وراء غرائزه، ولم يكن عطوفاً على الإطلاق مثله في ذلك مثل الموندغومر الذين أعجبوا به وكرهوا ميد. قام الثلاثة بتحليل الثقافات المختلفة العديدة التي عرفوها مثل الأرابيش والموندوغومر والتشامبولي والإياتمول وكذلك الثقافات الثلاث التي جاؤوا منها، وهي الأمريكية، والإنجليزية، والنيوزيلندية، وثقافة العالم الأكاديمية. التي جعلت ميد وبيتسن يشعران أنهما في وطنهما بينما لم يشعر فورتيون بذلك. وكان بيتسن مهتماً بما أسماه «روح الشعب» في كل مجتمع درسه، ويقصد بهذا المصطلح الإيقاع العاطفي للمجتمع. وقد قاموا كذلك مقارنة أدوار الذكر والأنثى في كل مجتمع، والتوقعات التي على أساسها يضبط كل جنس سلوكه.

وعندما أرسلت رث بندكت نسخة من كتابها المقبل «أنماط الثقافة» قرؤوه بشغف واهتمام؛ إذ طورت بندكت فيه فكرتها القائلة أن الثقافة تنتقي من الإرث العظيم للخيرات الإنسانية سمات معينة تركز عليها بينما لا تهتم بالسمات الأخرى. فبينما تركز بعض الثقافات على التناغم بين أفرادها والتقليل من الصراع، تبدو ثقافات أخرى مشجعة على التطرف العاطفي. بشكل عام، فإن معظم الناس يعرفون كيف يتأقلمون مع مجتمعاتهم، والقيام بما تقدره هذه المجتمعات إلا أن هناك دائماً أناساً بميزات فطرية شخصية بعيدين كل البعد عن معايير المجتمع؛ مما يبقيهم خارج إطاره. أحس كل من ميد وبتسن أنهما مبعدين داخل مجتمعيهما لدرجة ما؛ فقد كانت ميد تشعر أنها لا تستطيع التأقلم مع أسلوب عمل المرأة في أمريكا بسبب اهتمامها الكبير بالأطفال، وكان بيتسن يشعر أن النمط الإنجليزي المعروف بالسلوك الذكوري العنيف لا يناسبه. في ربيع عام 1933، ترك كل من ميد وفورتيون وبيتسن نهر سيبيك. عادت ميد بمفردها إلى نيويورك وهي مدركة أنها قد وقعت في حب غريغوري بيتسن، وفي غضون سنتين ستكون قد حصلت على الطلاق من فورتيون وتزوجت بيتسن. في تلك الأثناء، كتبت ميد كتابين آخرين أولهما هو «الزواج والمزاجية» الذي نشر في عام 1935. هذا الكتاب مبني على دراستها للشعوب الثلاثة الذين زارتهم في رحلتها الأخيرة إلى غينيا الجديدة؛ وهم الأرابيش،

والموندوغومر، والتشامبولي، وقد ناقشت في هذا الكتاب فكرة أن الطبيعة الإنسانية مطواعة بشكل غير متناهي، وأن الكثير من سمات الشخصية التي نسميها «مذكرة» أو «مؤنثة» هي في حقيقة أمر من إملاءات المجتمع، والتوقعات الثقافية، وأن ارتباطهما بالغريزة والتكوين الفيزيولوجي ضعيف جداً كارتباطهما بالألبسة والسلوك. تعجب بعض النقاد من كيفية تمكن ميد من زيارة ثلاثة مجتمعات تتوافق بشكل كامل مع ما أرادت أن تدرسه، وردّت عليهم باستخدام مثاليين سلبيين حيث كان المجتمعان الأوليان اللذان زارتهما يفرقان بشكل قليل بين أدوار الذكر والأنثى، وهذا أحبطها في البداية حيث كانت تريد تسليط الضوء على مجتمع يفرق بشكل واضح بين أدوار الجنسين بشكل يناقض المعايير الغربية التقليدية تناقضاً حاداً. أوضحت أنها لم تكن محظوظة بشكل خرافي، كما أنها لم تجد ما كانت تبحث عنه، والذي قررته بشكل مسبق كما زعم النقاد؛ بل إنها قد حاولت أن تستفيد من الخبرات التي وجدتها هناك.

ثم عكفت ميد على دراسة ما أسمته «التعاون والتنافس عند الشعوب البدائية». حفزها على هذا الكتاب كلٌ من عالم الاجتماع لورنس ك. فرنك من مؤسسة روكفيلير الوقفية، وطبيب الأمراض العقلية هاري ستاك ساليفان الذي قابلته ميد في مؤتمرات نظامية. أراد الثلاثة معرفة رأي أدب الشعوب البدائية من موضوع التعاون والتنافس، وما إذا كانت هذه الأنماط السلوكية فطرية في الكائن

رسالة من الميدان:

أرسلت ميد الكثير من الرسائل المكتوبة على أوراق الكربون إلى أفراد من عائلتها وأصدقائها، بينما كانت بعيدة في بعثتها في ميدان العمل. أفادتها كتابة الرسائل من عدة نواح، فقد كانت تجد فيها الراحة بعد عمل يوم مركّز ومكثّف، كما أنها كانت إعادة تأكيد لها، وتذكّير بنفسها، وبثقافتها بعد انغماسها ليوم كامل في طريقة غريبة للحياة. كانت كتابة الرسائل كذلك مشاركة بخبراتها مع أولئك الذين أحبتهم.

كتبت هذه الرسالة من اليتوا في غانا الجديدة في 15 مارس عام 1932 عندما كانت مع فورتيون بين الأرابيش.

تقول في رسالتها: «لقد مررنا للتو في أسبوع من أكثر الأسابيع المتعبة بشكل عام، ولكنه الأكثر إثماراً من الناحية العلمية في دراسة علم الأعراق البشرية. باليد وهو (أب الجميع) رجل طويل ونحيل وعجوز، ذو طبيعة جشعة ومنغلقة يغطيها بابتسامة عريضة ودودة كاذبة، وسلوك حصيف لحاكم محتل مهم. يقدم له أفراد القبيلة حفلة كبيرة بمناسبة الاحتفال بالشعائر الأولية المبكرة لابنه بادوي، وهو شاب مجهّز جيداً لتقلّد المناصب في الثامنة عشر من العمر، يمتلك زوجتين صغيرتين إحداهما في العاشرة والثانية في الثانية عشرة من عمرها.

بصفته الابن البكر لباليدو فهو في طريقه ليصبح شخصاً مهماً. كانت الحفلة الكبرى تُعنى بجمع التامباران في بيت القرية التاماباراني، حيث التجمع الضخم للناس هنا، في حين اختار أناس آخرون أن يزاولو أعمالهم الصغيرة المختلفة. بالإضافة إلى هؤلاء وهؤلاء، كانت هناك أيضاً سلسلة من الحفلات الأصغر، والمشاجرات والاتهامات المضادة، ودفعات الزواج والرجم بالغيب، إلخ...

لتقدير معنى أن يكون لديك أكثر من 200 شخص متجمعين هنا، فمن الضروري أن تدرك أن القرية الصغيرة واقعة فوق شريط جبلي بعرض 66 قدم، وبطول شارع صغير في نيويورك. إنها فقط عبارة عن قطعة مستوية صغيرة مقطوعة من قمة المنحنى الضيق المتن المطلي بالصلصال الذي قسته السنين. على كل طرف، هناك الانحدارات الشديدة لمئات الأقدام إلى الأسفل. يوجد في القرية حوالي 30 منزلاً بعضها يشبه العلب الصغيرة المستندة على ركائز بعرض 8 أقدام وطول 10 أو 12 قدم، بينما لا يجد الآخرون سوى ملاجئ قاسية على الأرض. إن موقع القرية نفسه ليس مستوياً حيث توجد سلسلة من التموجات والمنحدرات الصغيرة، مما يُسبِّب طوفان المكان بالماء عند هطول الأمطار. كان على النساء حمل كل لقمة طعام أو عود حطب أو ورق شجر للطهي، أو تقديم الطعام، الخ... في سلة معلّقة تتدلى من جبينهن، وكن يحملن كل هذا على الطرق الوعرة الشديدة الانحدار.

البشري أم لا. أرادوا معرفة ماهية أنواع السلوك الإنساني للإنسان البالغ سواء كان تنافسياً أم تعاونياً وما إذا كان ميزة للمجتمعات المختلفة وكيف يتم نتاجها؟

ترأست ميد ما بين عامي 1934 ـ 1935 حلقة بحث في قسم علم الإنسان بجامعة كولومبيا لمناقشة هذا الموضوع، واستخدمت من أجل ذلك كلاً من المواد المكتبية، والتقارير المكتوبة بخط علماء إنسان آخرين. جمعت ميد مع طلابها معلومات عن 13 ثقافة بما فيها الأوماهوس، وسكان الأسكيمو في جرين لاند (الأرض الخضراء)، والأوجيبوي في كندا، والكواكيوتل في جزيرة فانكوفر، والإيفوجوا في الفلبين، والباشيجا، والباثونجا في أفريقيا، والماوري في نيوزيلينده، مع الساموويين والمانوس والأرابيش في جنوب المحيط الهادئ. كتبت ميد عدة فصول وصفية، وختمت كتابها بكلمة ختامية تقول فيها: إنها بعض الثقافات كانت تنافسية إلى حد بعيد بينما في بعض الثقافات كان التعاون سائداً بشكل كبير. بينما تجمع ثقافات أخرى خليطاً من الاثنين بدرجات متفاوتة؛ وبهذا فإنه من غير الممكن أن يأتي أحدٌ ما ببساطة بعبارة شاملة حول الطبيعة الفطرية المزعومة للإنسان.

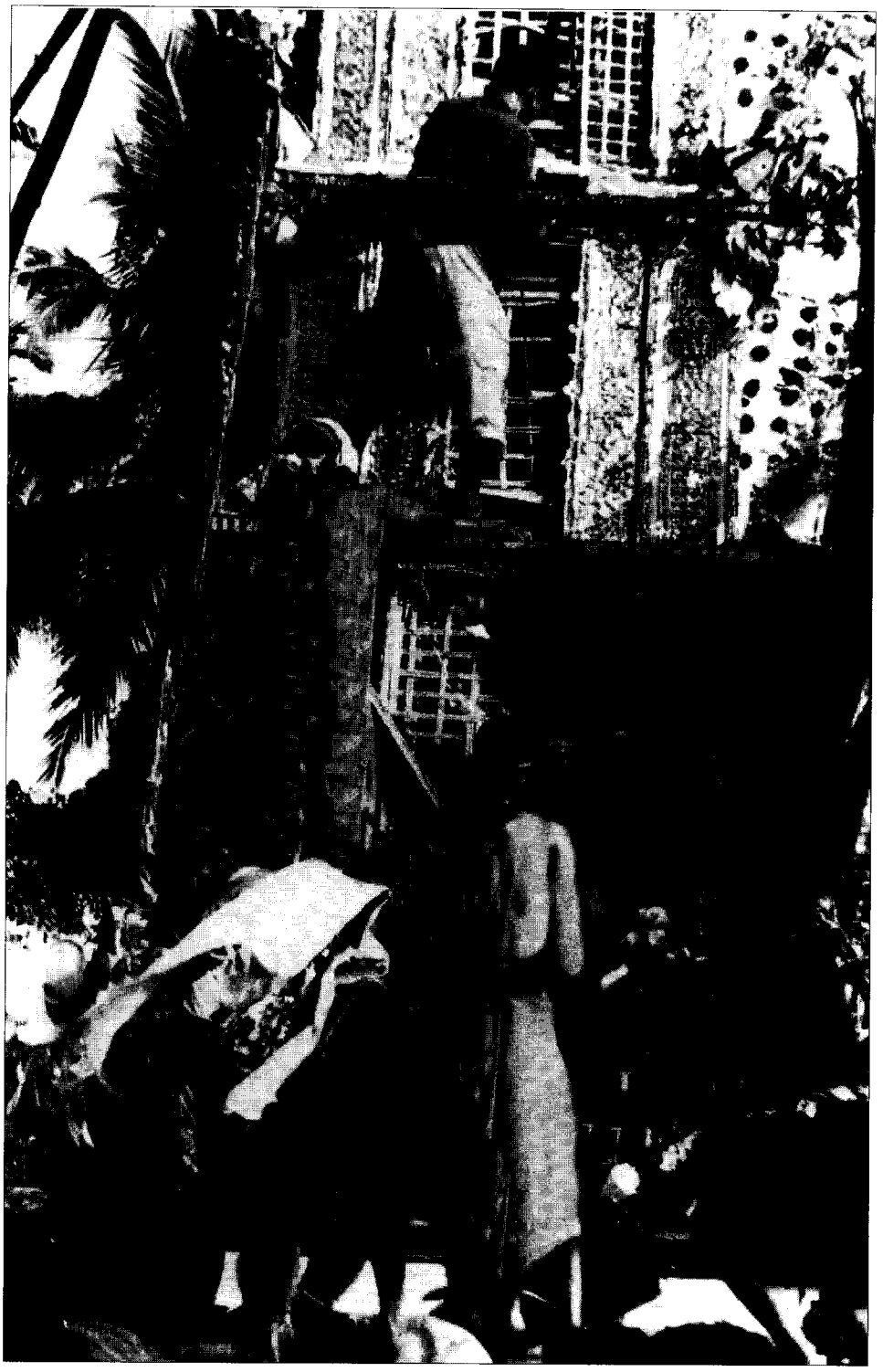

أبراج إحراق جثث الموتى، مثل هذا البرج كان يُبنى لوضع الجثة في أعلاه. كانت الجثة تُحمل لتُحرق في نار تضرم في الهواء الطلق.